

رأي

الدكتور غدير سعادة*

لا بلد في العالم يعطي الصحافة حرية مطلقة وجوه التضليل الإعلامي لا تقتصر على السياسة

الموضوعية الاعلامية حلم لا يزال بعيد المنال. فالتلاعب بالاخبار والاراء، وان كانت تتشارك فيه كل الانظمة السياسية، البدائية والمتقدمة، اليمينية واليسارية، القديمة والحديثة، لا يقتصر فقط على الشأن السياسي، وان كان هذا ابرز وجوهه

عامة عادل. فهو يدعو الصحافة الى تحمل مسؤولياتها في ما تنشره. ويمكن ان تخبىء هذه القوانين قيودا، الى درجة ان ختما غير اخلاقي يمكن ان يطبق على نحو واسع النطاق ومتكرر.

اما التوجيهات الرسمية، فهي كل ما يصدر عن السلطات المدنية والعسكرية، لاسيما الضغوط الاقتصادية والسياسية التي تعتبر الوسيلة الاكثر مرئية للحد من حرية الصحافة، كاللجوء الى الرقابة والضغوط الاقتصادية. الحكومات وسعت نطاق هذه الضغوط من خلال منح وسائل الاعلام والصحافيين، تسهيلات وتقدميات.

اما الاعلانات الرسمية فهي مخصصة لفئة "مع" ومحظورة على فئة "ضد". الا ان هناك ثلاثة استثناءات، كحجب المعلومات الذي هو شكل من اشكال الاحتجاز يمارس التضليل ويزور الحقيقة التي هي الاولوية الالهة للصحافيين. هذه الممارسات هي غير مشروعة، وغير مرئية، وتجعل معرفة الحقيقة ضبابيا. لكن السلطات تحاول ترويض الصحافة وتحويلها الى رديف لها او حليف، او على الاقل متعاون.

ان التضليل الاعلامي، بصفة عامة، لم يساعد يوما على توطيد الامن، بل على العكس من ذلك، تنفجر الازمات الكامنة في نهاية المطاف.

الصحافة تتمتع بصلاحيات واسعة وقادرة على تخفيف حدة التوتر، لكنها في الوقت نفسه، بممارسة التضليل، تثير المخاوف وتديم الخوف. ويمكننا اليوم، من دون حرب، اثاره مجتمع ضد آخر، وطبقة اجتماعية او عرقية ضد اخرى. هيمنة الوكالات الدولية على المعلومات هو كامل شامل، فالغرب يمتلك 120 وكالة انباء تغطي ما يقرب من 70 دولة.

الانزلاق من المعلومات الى الدعاية السياسية سهل جدا. الكتابات المتكررة عن حرية الصحافة في العالم العربي، لا تعني ان الحرية هي في صلب الاهتمام، بل انها في ازمة. الصحافة تلعب دورا تضليليا في العالم الثالث من خلال تشكيل الرأي العام بتنميط افكاره وردود فعله، فتفرض الحكومات كوابح على بنية المؤسسة وممارستها.

يتم التلاعب بالاخبار من خلال:

الارباك: (راجع: "نماذج من التضليل الاعلامي")، السفسطة او فن التلاعب المنطقي بالكلام: "علينا ان نطالب باسم التسامح الحق في عدم التسامح مع غير المسموح به"، استطلاعات الرأي، رد الفعل المشروط، الدعاية السياسية، غسل الدماغ، العدد (الرقم)، الصورة، الكاريكاتور، الصفات والنوع، علامات التعجب والاستفهام، الكتب، التكرار (تحول المثل الى نموذج): "الثورة الفرنسية"، المعاني الكامنة (درجة البدهة)، القوالب النمطية، الافتراضات، الاخراج، الطباعة، الجمل التمهيدية، العناوين والعناوين الفرعية، كلام الصور، رسائل القراء، العبارات الاستهلاكية، الاعلان، الامثال والحكم والاقوال المأثورة، التوقيت، جدول الاعمال، النجومية، المشاهدة، التلاعب بالمناقشات المتلفزة، التسويق السياسي، رأس المال، الخ...

الحقيقة التي نتعاطى معها في يومنا هذا، ما هي الا وهم، لأن الحقيقة بكل بساطة ليست واحدة. ما نصادفه وما نتعاطى به هو عبارة عن صيغ مختلفة لها وجهات نظر، قد يكون بعضها متعارضا، انعكاسات للحقيقة.

الارباك (La confusion) يتضمن مثلا افخاخ الترجمة. كلنا يذكر دياحة القرار 242، وال تعريف الشهيرة. كما ان البليون في الولايات المتحدة وفرنسا هو الف مليون، بينما هو في انكلترا وسائر اوروبا مليون مليون.

يمكن لبني البشر ان يقعوا في الارباك نفسه في التعبير الجسدي الموروث من التقاليد غير المفهومة من الاجانب. فطريقة السلام والتحية تختلف من بلد الى اخر، لاسيما ما يتعلق منها بعدد القبلة والمسافة بين شخصين يتواجهان. وللارباك حسنة كحالة "هانس" الجواد "اللعين" الذي يتواصل مع صاحبه، بطرق نضوته بالارض: ضربة للحرف "ا"، ضربتان لـ"ب"، وهكذا... بعد ان علمه صاحبه فيلهم فون اوستن الابجدية، وهو مدرس متقاعد من برلين.

اما التضاد (Le paradoxe) اي التضارب في المعنى من خلال التعابير المستخدمة، فهو كان نقول مثلا "ان افكر بانني لا اريد التفكير بك يعني انني افكر بك"، و"اني سعيد بانني لا احب الملفوف، لاني لو احبته لاكلت كثيرا منه وهذا ما اكرهه". وغالبا ما يتعارض وجه مضيفة الفندق مع شارة "اهلا وسهلا" التي تحملها على صدرها.

لا داعي للقول ان هذا لا ينطبق على الحيوان فقط. لاعطاء مثل عن التضليل التجريبي، نلجأ الى الكاميرا الخفية للقيام بالتجربة التالية:



* استاذ جامعي

تركن سيدة سيارتها في الموقف 1 ثم تنقلها رافعة الى الموقف 2. لشدة دهشتها، تركض لاستدعاء النجدة، وقبل عودتها برفقة العامل، يعيد الفريق السيارة الى المكان الذي ركنتها في 1. فعلاوة عن الصدمة الاولى، عليها الان الشك بسلامة قواها العقلية.

لكي ينجح التهديد، يجب ان تتوافر فيه شروط ثلاثة: ان يكون مقنعا، او ممكنا الى حد كاف حتى يؤخذ بجديته، وان تطاول اهدافه الفريق المهتد. كما يجب ان يكون بمقدور الهدف الخضوع للتهديد.

اما التهديد العاجز عن بلوغ هدفه، فيمكن تشخيصه عند محاولة سرقة مصرف يتبين انه اعلن افلاسه البارحة.

في عمل الاستخبار، يمكننا هنا ان نعطي دليلا على التضليل من خلال عمل اجهزة المخابرات الذي يتضمن شقين: الحصول على معلومة عن العدو (تجسس)، ومنع العدو من الحصول على معلومة (مكافحة التجسس).

هناك ايضا نشاط ثالث وهو تزويد العدو معلومات مضللة من خلال مقولة "ماذا يعتقد انني اعتقد ما يعتقد؟". علما ان السوفيات كانوا يضيفون الى ذلك ضغط النفوذ.

اما مسألة تأثير استطلاعات الرأي على سلوك الناخبين فقديم قدم الاستطلاعات نفسها. فالتلاعب بالارقام سهل في ظل غياب ضوابط دقيقة وقاسية. وشيئا فشيئا حصلت محاولات لضبط الاوضاع خصوصا بعدما اصبح صوت ناخب واحد في الانظمة الديمقراطية يبدل الحكم والحكومات، ويتحكم بالمصائر والمقدرات.

نحن نعرف القليل جدا عن تأثير استطلاعات الرأي على سلوك الناخبين. قد تكون هناك "تداعيات": تصويت الناخبين للجانب الذي اعلن منتصرا. رد الفعل قد يكون عكسيا ويعبر عن "التعاطف" مع الخاسر لتجنبه هزيمة قاسية.

هناك ايضا وضع التوقعات، تنظيمها ونشرها. لضمان معلومات يمكن للناخبين الركون اليها، ينبغي لاستطلاعات الرأي ان تحترم عددا من القواعد في وضع استبياناتها وعيناتها.

لقد تفوقت الكمية على النوعية. يحكي هيربرت شيلر في كتابه "المتلاعبون بالعقول" كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والاعلان وسائل الاتصال الجماهيري، خيوط الرأي العام. يقول: يقوم مديرو اجهزة الاعلام في الولايات المتحدة الاميركية بوضع اسس عملية تداول الصور والمعلومات، ويشرفون على معالجتها وتنقيحها واحكام السيطرة عليها. تلك الصور والمعلومات التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا، بل وتحدد سلوكنا في النهاية.